سعد (١٨٧٦. ص ١٢٠) = ٩ً قواطيق اللغة الفرنسوية لزتلو غطاس افندي (١٨٨٥. ص ١٩٩) = ١٠ً قاموس فرنساوي وعربي = ١١ً الكنوز الابريزية في متن العربية والانكليزية لسليم كباب وجرجس همام (١٨٨٨. ص ٨٠٢) = ١٢ً مبادئ القراءة (انكليزي عربي) = ١٣ً محكمات عربي وانكليزي = ١٤ً الهدية الشرقية في اللغتين العربية والانكليزية

وكتب اخرى غيرها لم نستحق موادها. وفي هذه المطبعة تُطبع او طُبعت مدةً بعض جرائد ومجلات كالطبيب والرئيس والمنار وسالنامات وروزنامات وغير ذلك مما يشهد بتقدم هذه المطبعة والخدمات العديدة التي يؤديها صاحبها الفاضل للمعارف والآداب

(ستأتي البقية)

مقام يوسف البارّ بين الاولياء الاطهار

نبذة لاهوتية للاب بولس جوون اليسوعيّ

كتبها بمناسبة وقوع شهر آذار المخصّص بذكر القديس يوسف الجليل

ان التعبُّد لخطيب البتول الطاهرة وابي المسيح بالذخيرة قد بلغ منذ خمسين عاماً مبلغاً عظيماً في العالم المسيحي حتى لم يعد اليوم احد من المؤمنين في انحاء المعمور يفصل اسمهُ الجليل عن اسمي يسوع ومريم الكريمين. ولا غرو فانَّ من اعتبر يوسف المختار مع حليلتهِ المجيدة والطفل الالهي الذي وُكل الى حراستهِ وجد فيهم ثالوثاً ارضياً يمثل لنا احسن تمثيل ذلك الثالوث العلوي الذي لا يقبل انفصالاً. وعليهِ فقد ابى النصارى الّا ان يكرموا يوسف البار اكراماً ممتازاً لم يؤدوا بهِ الى غيرهِ من الاولياء القديسين. بل ارشدهم تقاهم الى ان يفضلوهُ على كل من سواهُ ويثقوا بهِ ثقتهم باقرب الشفعاء من عرشهِ تعالى بعد البتول الطاهرة. فمن ثمَّ قد تلقَّى الشعب المسيحي باصوات الاستحسان ورنّات الفرح ما كتبهُ لاون الثالث عشر الماثل سعيداً في حقّ يوسف الجليل حيث قال علناً في براءتهِ الصادرة في ١٥ آب سنة ١٨٨٩: «لا ريب انَّ يوسف فاق جميع الابرار فبهرهم برتبتهِ السامية ومناقبهِ السنيَّة وترفّع ببرارتهِ دونهم الى مثال الفضائل وقدوتها البتول العذراء الجليلة خطيبتهِ»

فنعم القول وما غايتنا في هذه اللمعة الوجيزة الّا ان نثبتهُ بالادلَّة الراهنة ليرى

المؤمنون ان تعاليم الكنيسة كلها مبنيَّة على اساس الحق توحى اليهـا من مصدر اليقين وينبوع الصدق عزَّ وجلَّ

١

ولكن يترتب علينا قبـل ان ندعم بالبرهان هذه الحقيقة في عظم شأن القديس يوسف بين اوليـاء الله ان نتلافى مشكلين يمكن البعض ان يعترضوا بهما علينا في هذا الصدد

فالاعتراض الاول نأخذهُ من نفس الانجيل الكريم حيث ورد في متَّى (١١ : ١١) ولوقا (٧ : ٢٨) انَّ بين مواليـد النساء ليس من احد اعظم من يوحنَّا المعمدان. فيقول المعترض ان هذه العظمة التي نسبها الرب ليوحنَّا المعمدان ليست عظمة بشريَّة وانَّما هي عظمة ادبية فائقة الطبيعة اعني القداسة فاذن فاز يوحنَّا الصابغ بقصبة السبق في ميدان القداسة على يوسف البار

قلنا ان هذا المشكل لا يُحلّ الَّا بمراجعة كلام الانجيل ليظهر من نفس القرائن ما هو معنى قول الرب في هذه الآية:

يخبرنا متى في الفصل المذكور ان يوحنا اوفد من حبسهِ اثنين من تلاميذهِ ليسألا يسوع: أهو المسيح الموعود ام ينبغي ان يُنتظَر غيرهُ. وانما يوحنَّا فعل ذلك لا لشكوك بدا لهُ في امر المسيح بل ليرشد تلاميذهُ ويعرّفهم المسيح الذي شهد لهُ يوحنا غير مرة. فيسوع ادرك مراد المعمدان فقال لتلميذيهِ اذهبا وقولا ليوحنا ما رأيتما وسمعتما... وبعد مضيّهما اغتنم يسوع الفرصة ليبيّن فضل العهد الجديد على العهد العتيق الذي انتهى بيوحنا المعمدان. وليان ذلك اخذ في إطراء الصابغ فذكر ثباتهُ (متى ١١ : ٧) ثمَّ زهدهُ بملاذّ العالم (١١ : ٨) ثمَّ جعلهُ نبيًا وافضل من نبيّ (١١ : ٩) لان الله عهد اليهِ بان يكون ذاك الملاك الذي تنبأ عنهُ ملاخي (٣ : ١) فاختارهُ ليتقدَّم امام وجه مسيحهِ الآتي ليعدَّ طرقهُ (متى ١١ : ١٠) ولذلك يحقّ ليوحنا بان يُدعى الياَّ (متى ١١ : ١٤) كما دعاهُ الملاك لمَّا ظهر لابيهِ زكريَّا (لوقا ١ : ١٧) فهو لكل هذه الصفات ارفع رتبة واعلى مقاماً من كل اولياء العهد القديم وبهذا الوجه يصحُّ فيهِ ان يُدعى اعظم مواليد النساء (متى ١١ : ١١)

فبعد ان اطنب المسيح لذكرهِ السجود في شخص يوحنَّا وفضائلهِ ورتبتهِ الشريفة

انتقل الى ذكر العهد الجديد وبيّن فضلهُ على العتيق فقال (متى ١١ : ١١ ولوقا ٧ : ٢٨) « وانا اقول لكم ان الاصغر في ملكوت الله اعظم من يوحنا » . فملكوت الله كما لا يخفى استعارةٌ تطلق مرارًا في الانجيل الطاهر على الكنيسة التي انشأها المسيح وبالاجمال على العهد الجديد . ومعناها هنا ظاهر لانهُ لو اراد المسيح الدلالة على ملكوت السماء وجنّة الخلد لجعل يوحنا آخر القديسين وهو خلاف ما يريد المعترض . فصحّ اذًا ان المراد بقول المسيح انّ رتبة يوحنا في العهد القديم اعظم من رتب الآباء والانبياء الذين سبقوهُ . ولذلك لم يَقل القديس لوقا (٧ : ٢٣) على وجه الاطلاق « انهُ لم يقم بين مواليد النساء اعظم من يوحنا المعمدان » بل خصّص فقال : « ليس في مواليد النساء نبيٌّ اعظم من يوحنا »

ومحصّل القول انّ المسيح لم يقابل بين يوحنا وجميع القديسين كما ظنّ بعض المفسّرين بل قابل اعظم رتبة في العهد القديم وهي رتبة يوحنا مع رتبة اي مسيحي كان فلا غرو ان حالة هذا اعظم من حالة الاول لانهُ بالعماد يصير ابنًا لله وارثًا للمسيح ووريثًا لملكوت السماوات . كما لو قلتَ مثلًا ان في الملك النباتي ليس شجرة اعظم وابهى من النخلة . ومع هذا لو قابلت هذه الشجرة باصغر الهوامّ والهمج لوجدتَ رتبة هذه افضل من رتبة النخلة لانّ الهوام يخصّون الطور الحيوانيّ وهو اعظم من الطور النباتيّ

فهذا التفسير قد سبق اليهِ القديس كيرلّس الاسكندري وغيرهُ من آباء الكنيسة وأيدوهُ بالبرهان . ومن الحجج التي احتجّوا بها ايضًا انّ المسيح لو اراد بقولهِ المذكور تفضيل قداسة يوحنا على كل اولياء الله لكان كلامهُ مخلًّا بشرف العذراء البتول سلطانة جميع القديسين وكان يوحنا المعمدان ارفع منها مقامًا وهو امرٌ لم يرضَ بهِ احد من النصارى البتّة . فصحّ اذن انّ هذه الآية لا تمسّ في شيء شرف القديس يوسف

امّا (الاعتراض الثاني) على سموّ مقام يوسف البار بين مصفّ الابرار فهو يستند الى التقليد الكنسي فيقول البعض : « اننا لعالمون انّ آباء الكنيسة الاقدمين قد اثنوا على قداسة يوسف الجليل وبرّهِ وبتوليتهِ الدائمة (١ ولكن لا نراهم صريحًا يُشيدون

١) راجع ما كتبهُ المشرق في اثبات بتولية القدّيس يوسف وشهادات آباء الكنيسة اليونانية في ذلك (٣ : ٣٨٠ و ٤١٢ و ٥١١ و ٤٨٦)

بمجامدهِ الى حدّ انهم جعلوهُ اعظم كلّ الاخيار القديسين بعد مريم البتول

جوابنا على هذا الاعتراض الثاني ان الآباء الاولين لم يصرّحوا بكثير من العقائد الدينيَّة التي استلمتها الكنيسة من ايدي الرسل الحواريين فان هذه العقائد مع صحّتها لم تتضح جليًّا الّا بعد زمن طويل على مقتضى الحاجة اليها عندما استدعت الاحوال إماطة حجاب الخفاء عنها. ألا ترى مثلًا ان كل مجمع من المجامع العمومية كشف القناع عن بعض الحقائق الحقيَّة التي لم تظهر علانيةً قبل اوانهِ. فان مثل عقائد النصرانيَّة كمثل الجنين الذي يحتوي بالقوة كل خصائص الرجل الكهل التام الحاقة ولو يُقتضى مرور بعض الزمن لظهور اعضائهِ وكمال بنيتهِ

ولنا مثال على ذلك في ما صنعتهُ الكنيسة في ايامنا لمّا اشاعت بعقيدة خلوّ العذراء من شائبة الخطيئة الاصليَّة في اول ما حُبل بها في احشاء والدتها القديسة حنة. وهو معتقد اتفقت الكنيسة الغربيَّة والشرقيَّة على الايمان بهِ صريحًا بعد ان اعتقدتاهُ على وجهٍ غير صريح في القرون السابقة. وكذا قل عن سموّ فضل القديس يوسف الذي يعتبرهُ الآن الشعب المسيحي كرأس الابرار بعد البكر الطاهرة. فان مقامهُ كان في بدء النصرانيَّة محجوبًا فلم يزل ينقشع عنهُ غيهب الخفاء حتى ظهر في ايامنا كما هو حقيقة اعني قديسًا جليل المقام رفيع الشأن بل اعظم اولياء الله

فلا حرج اذن ان لبّى الكرسي الرسولي دعوة جمهور كبير من الاساقفة والامم الكاثوليكيَّة الذين طلبوا من المجمع الفاتيكاني ان يخوّل القديس يوسف اكرامًا خصوصيًّا ويجعل عيدهُ حافلًا في كل الكنائس ويمنحهُ في الطقوس والرتب الالهيَّة المقام الاول بعد العذراء عليها السلام. وهذه العريضة كان أمضاها سنة ١٨٧٠ ثمانية وثلاثون كردينالًا و ٢١٨ اسقفًا

ولمّا كانت سنة ١٨٨٧ سعى بعض الكهنة بانشاء رقيم آخر بمعنى السابق ختمها ٦١٠ اساقفة و ٣٢ كردينالًا وكل رؤساء الرهبانيَّات. وهذه العريضة تلقّاها الكرسي الرسولي بما تستحقهُ من الالتفات والاعتبار حتى انهُ ليس بمستبعد انّ امام الاحبار يصادق عليها بعد حين وينصّب يوسف البارّ تنصيبًا رسميًّا فيُعدّ ليس فقط كشفيع اوّل لكنيسة الله بل ايضًا كاوّل الاولياء بعد البتول

٢

فبعد هذه المقدّمات يسوغ لنا ان نتخطّى الى بيان القضيّة التي اخذنا على نفسنا اثباتها اعني انّ المقام الاول بين اولياء الله يحقّ ليوسف لا لسواهُ. واكتفي لذلك ببيّنتين صادقتين لا ريب فيهما (١

واوّل برهان نسند اليهِ صحّة مقالنا الشرف الجزيل الذي نالهُ يوسف القديس بان يكون ابًا للمسيح

أجل ان يوسف الجليل لم يُولد المسيح كما يُولد الآباء ابناءهم ولم يكن يوسف اباهُ بالطبيعة لان المسيح بحيث هو انسان لا أب لهُ كما انهُ لا أمّ لهُ بحيث هو اله. ولكن أترى ذلك كافيًا ليُحرم يوسف شرف الابوّة الحقيقيّة بالنسبة الى يسوع. لا لعمري

وان سأل سائل ماذا نفهم بهذه الابوّة الحقيقيّة. اجبنا انّ الحقيقي خلاف المجازي فبقولنا اذن ان يوسف ابٌ حقيقيٌّ للمسيح نريد انّ ابوّتهُ ليست بابوّةٍ خياليّة خارجيّة كما ندعو ابًا من يربّي الولد ويهذّبهُ او يقوم لهُ بمقام ابيهِ الطبيعيّ. فانّ هذه الابوّة اسميّةٌ مجازيّةٌ لا تكفي لشرف يوسف البار

وليست ايضًا ابوّة يوسف ابوّةً شرعيّة محضةً مبنيّةً على التبنّي القانونيّ بازاء الشريعة فتخوّلهُ حقوق الاباء نحو ابنائهم. كلاّ بل ليوسف ما هو فوق ذلك. لهُ بالنسبة الى الرب الاله ابوّةٌ صحيحة صادقة مختصة بهِ وحدهُ يجوز ان ندعوها ابوّةً ادبيّة. قال العلامة سواريس: «قد نال يوسف ابوّةً فعليّةً بالنسبة الى المسيح لولا انهُ لم يُنشِئهُ بالولادة»

وما يؤيد صحّة هذا القول ان اقتران يوسف بمريم كان اقترانًا شرعيًا تامّ الشروط بحيث حصل كلاهما على حقوق الأزواج ولو انّهما نذرا عفّتهما لله وامتنعا طوعًا عن الاستمتاع بهذه الحقوق المتبادلة

وعليهِ ان شاء الله ان يقوم بنفسه نحو البتول العذراء مقام يوسف فيظلّلها بقوّتهِ الفعليّة ويُحلّ عليها روحهُ القدوس لتلد ابن الله بلا رجل أفليس ليوسف ان يعتبر هذا المولود

---

١) قد ظهر في اوربا مدّة تآليف في هذا الموضوع نخص بالذكر مصنّفات عديدة للاب «ماريانى» طُبع معظمها عند ليكوفر (Lecoffre) سنة ١٨٩٧

كخاصته يجمعهُ واياهُ روابط من العواطف الابوية كما نراها في احنّ الاباء واصدقهم حبًّا نحو ابنائهم

وزد على ذلك ان الله عزَّ وجلَّ يعامل اولياءهُ القديسين بحكمةٍ عجيبة ولطف سامٍ لا يكلفهم امرًا مُغايرًا لطباعهم. فلما اختار تبارك اسمهُ يوسف البار ليقوم بأود المسيح مدَّة ثلاثين سنة فيقيتهُ ويهتمّ بكل حاجاتهِ ويكابد لاجلهِ المشقات ويدفع عنهُ البلايا اقتضى الامر بان يربطهُ والمسيح برباط وثيق لا يتوقف على مودَّة عرضيَّة وتسميةٍ شرعيَّة بل يخلق فيهِ روحًا جديدًا وهو روح اعطف الاباء

وعلاوةً على ذلك كان يوسف مختارًا من الله الاب ليقوم بازاء المسيح مقامهُ في الارض وهذه لعمري رتبةٌ شريفة ليس لها شبيه تجعل يوسف مماثلًا للاب السماويّ. فاوجب ذلك ان يعطي اللهُ الآبُ يوسفَ نائبهُ شيئًا من روح ابوَّتهِ الالهيَّة الفائقة كل مدارك البشر التي بموجبها يولد كلمتهُ وابنهُ الحبيب وصورة جوهرهِ منذ الازل

فهذه الاعتبارات تزيل كل ريب في ابوة يوسف الحقيقية. ولذلك نرى الانجيل لا يرتاب في تسميتهِ ابًا للمسيح وكذا تدعوهُ البتول العذراء نفسها (لوقا ٢: ٤٨)

قال يوستينوس الشهيد في القرن الثاني للمسيح: «قد احبَّ الله ان يُعطي ليوسف ابنًا مولودًا من قرينتهِ ولو لم يتناسل منهُ». وقال كورنيليوس الحجريّ: «ان المسيح ثمرة زيجة يوسف ومريم. فلما وُلد في عهد اقترانهما صار خاصتهما كليهما كما يخص الابن اباهُ وامهُ معًا. والسبب في ذلك واضحٌ لانَّ يوسف اضحى بالزيجة متملكًا جسد البتول فكل ثمرٍ منها هو ملكهُ حسب الشرع. وان اعترضتَ قائلًا ان مولد يسوع لم يكن على الطريقة العاديَّة فاذًا ليس ليوسف عليهِ حقوق الابوة اجبتُكَ تاركًا نتيجة القياس لانَّ مولد المسيح ولو لم يكن على الطريقة العاديَّة انما كان على طريقة شرعيَّة موافقة لحكمتهِ تعالى الذي لهُ ان يخترق سنن الطبيعة لغايةٍ اهلهُ بجلالهِ. ألا ترى انهُ لو انت ارضك بثمارٍ أنبتها الله دون زرع كانت هذه الثمار خاصتك وملكك فهكذا يصحّ ليوسف ان يدَّعي بابوةٍ صادقة حقيقية نحو المسيح ولو ولد من البتول خطيبتهِ بقوَّة الروح القدس دون زرع بشريّ

فالنتيجة من القول السابق ان رتبة يوسف اجلُّ الرتب واعلاها مقامًا بعد رتبة امّ الله. ولكن هذه الرتبة تستدعي قداسةً موازيةً لها وتستلزم فضائل سامية تناسبها

فثبت اذن ان قداسة يوسف تفوق قداسة جميع الابرار دون استثناء.

اما البرهان الثاني الذي يرضح قضيتنا ويبين تقدُّم القديس يوسف على جميع القديسين فمستندهُ على ان يوسف داخلٌ في طور سرّ التجسد الالهيّ فيستحقّ من هذا القبيل ان يُعَدَّ اعلى مقاماً من اي قديس كان الّا البتول مريم

اعلم ايها القارئ اللبيب انَّ لعالم النعمة اطواراً كما انَّ لعالم الهيولي طبقات مختلفة وقد قال الرسول (افس ٤: ١١): «انَّ الله جعل بعضاً انبياء وبعضاً مبشرين وبعضاً رعاةً ومعلمين لاجل تكميل القديسين ولعمل الخدمة وبنيان جسد المسيح». فهذا البنيان العجيب الذي اشار اليهِ الرسول في هذه الآية يبيِّن باجلى برهان ما في عالم الروحيّات من الدرجات والرتب المتفاوتة ولكن اذا حدَّقنا ببصرنا الى جماعة المؤمنين وجسد الكنيسة الادبي وجدنا طوراً آخر يفوق جميع هذه المراتب السابق ذكرها. وهو الطور المختص برأس هذا الجسد الرمزيّ وما هو هذا الرأس الّا المسيح كما اثبت ذلك بولس الرسل حيث قال فيهِ (كولوسي ١: ١٥و١٨): «هو صورة الله الغير المنظور.. وهو رأس جسد الكنيسة» وقال ايضاً (افس ٥: ٢٣): «انَّ الرجل هو رأس المرأة كما انَّ المسيح هو رأس الكنيسة»

فان كان لرأس كل جسم رتبةٌ عليا بالنسبة الى هذا الجسم فكم بالحريّ يكون رأس الكنيسة بالنسبة الى جسده الروحيّ. وهذه الرتبة التي تختصّ بالمسيح دون سواه تدعى رتبة اتحاد طبيعتيهِ الجوهريّ باقنوم ابن الله (ordre de l'union hypostatique)

ولكن هذه الرتبة المختصَّة بالهة الكلمة قد ينال منها شطراً كل من شاركهُ في هذا السرّ العجيب وعلى قدر مشاركتهِ لهُ. فالمقام الاوَّل كما لا يخفى لمريم العذراء اذ ان منها استمدَّ المسيح جسده الطاهر فصارت بولده منها امَّ الله حقيقة لانَّ في المسيح اقنوماً واحداً قائماً في طبيعتين

امَّا المقام الثاني فهو يحقُّ بلا ريب للقديس يوسف لانَّ سرّ التجسد «كما سبق الله وقضى بهِ» لم يمكنهُ ان يتمَّ دون يوسف كما انهُ لم يمكن وقوعهُ دون مريم. وذلك لانَّ الله لانجاز هذا السرّ العظيم لم يختر فقط بتولًا بل اختار بتولًا مرتبطة بعلائق الزيجة (راجع متى ١: ١٨—٢٠). والزيجة هذه التي تذهل عقول البشر لم يمكنها ان تتمَّ الّا بواسطة رجل وما هذا الرجل سوى يوسف البار ذي العفة الملائكيَّة. فان

وزيجتهُ بالعذراء الطاهرة وعفَّة كليهما كانتا امرين لازبين موجبين لتجسُّد ابن الله. قال القديس توما شمس المدارس: « قضى الله بعنايتهِ الربَّانيــة ان يُعقد القران بين مريم ويوسف ليولد تحت كنفهما الطفلُ الاله ». وقال سوارس: « قد رتَّب الله هذه الزيجة العجيبة ليتمَّ بواسطتها سرّ التجسُّد الالهي »

هذا ولا احد ينكر انَّ عظمة مريم العذراء تأتيها من كونها داخلة في رتبة اتحاد ابن الله بالناسوت البشري. ولكن كيف يسوغ ان يُحرم يوسف من هذا الشرف الاثيل ولولاهُ كما قيل لم يشاء الله ان ينجز سرّ الفداء البشري

واذا قابلنا بين رتبة يوسف هذه ورتبة يوحنَّا المعمدان او رتبة الرسل وجدنا بينهما بوناً عظيماً. وذلك ان يوحنَّا السابق وتلامــذة المسيح اقتربوا من شخصهِ الكريم وخدموهُ خدمةً صادقة وهيَّأوا لهُ الطريق ودعوا الناس اليهِ وشهدوا لهُ شهادة صادقة لم يستنكفوا معها عن سفك دمائهم لاجلهِ. ولكن اين هذه الخدمة التي غايتها رفع شأن المسيح وتعزيز ملكهِ من خدمة يوسف الذي شارك الثالوث الاقدس في ايجــاد سرّ التجسُّد وتنشئتهِ أليس طورهُ اعلى من طورهم ؟ لا مشاحَّة في ذلك. وقصــارى الكلام نقول انَّ يوسف الجليــل فاق برتبتهِ السامية كل الانام الا البتول بل فاق الملائكة انفسهم لانَّ ليس منهم احد نال ما نالهُ اذ قرَّبهُ الله من شمس البرّ ومصدر كل صلاح فجعلهُ في مقام دونهُ كلّ مقام دخل في طور سرّ التجسُّد مع العذراء مريم وبدخولهِ اضحى مرتبطاً باللاهوت نفسهِ ارتباطاً جليلاً خوَّلهُ شرفاً لا يُماثل

فيرى القــارئ ممَّا سبق انَّ الكنيسة اذا اثبتت عقيدة تقدُّم القديس يوسف على سائر اولياء الله لا تفعل شططاً وانهُ ليس على المؤمنين من حرج اذا التمسوا شفاعة هذا البار وقدَّموهُ في عباداتهم على كلّ من سواهُ. نفعنا الله بادعيتهِ وصلوات جميع اوليائهِ الاطهار امين

مطبوعات شرقية جديدة

بلوغ الارب في احوال العرب

للعلَّامة الفاضل السيِّد محمود شكري آلوسي زاده

الجزء الثالث طُبع في مطبعة دار السلام في بغداد سنة ١٣١٨ صفحاتهُ ٤٧١

يسرُّنا ان نكرر مرَّة ثالثة (راجع المشرق ٢: ٥٢٣ و٣: ٢٣٦) الثناء العاطر